زجاجة رماد ...

لراجي الراعي

فررت من الشمس الساطعة وأويت الى الضباب لأني رأيت فيه خيوطاً من ذلك النسيج الصوفي الهندي الذي حيكت به نفسي وقلت له : أيها الضباب انك تدل سنارك على كل ما يهال له الناس ويكبرون ، كأنك لا تؤمن بها أو كأنك ترى فيها سفعاً وعيوباً لا يصح معها أن تعرض على الناس ، وقلت له : زدني من حيرتك ووهمك واضطرابك أيها القمم بالأسرار والأحلام ترضعها لبان الوحي والشعر ، المائل أمامي كأنك تقول لي : أنا منك أو أنت مني ، أيها الهازىء بالنور على عظمته وسلطانه كأنك الوهم الأكبر يهزأ بالحقيقة الكبرى ، يا ابن الشعراء والملهمين ويا رفيق التائهين أيها الحامل الملايين من الأشباح تطلقها على ليالي الانسانية وتملأ بها الأرواح ، أيها الضباب الجميل الذي كما رأيته قال لي : انك لم تستقرّ بعد على ما تروم ، انت على مفترق الطرق وفي نفسك من شكي ومن قلقي ، أيها الضباب ... اهل اسامي كأنك قلق النور وأرق الليل . أيها الذي يبدو مع الشمس لبناً تتدفق به ثديّ الرؤى وينقلب بعد الغروب طافة وبلاءً ، أيتها الخرة البيضاء التي يسكبها الفرق في كؤوس القضاء ، أيها الضاحك على نقين الجهلاء الباكي على نفسه ، أيها الرماد المنثور الرتعش بذكرى لهبه القديم ، أيها النقاب الذي تستر به الطبيعة حياء جمالها ، أيها الغين الكوثر الذي لا يسقى الا في وليمة الالهام ، أيها العقد عقد الالم الذي ما بعده ألم يفرط في دموعه الزرقاء البيض ، أيها القلب الذي يختلج حياءً في صدر الأثير . أيها الضباب زدني منك أو زد نفسك مني فنحن في غير الحيرة والخيال والوهم جفنان يرتعشان ونحن في فم القضاء والقدر شفتان متمردتان ، ويا أيها الضباب ابق لي صباحاً فقد سئمت الشمس والقمر والغسق والسحر وما هنالك من تهاويل الرسوم وأكاذيب الصور ... تلك هي الكلمات التي خاطبت بها الضباب وراء هذا الجوّ الساطع في غير هذا اليوم ولبثت أنتظر الجواب وكيف يجيبني

الضباب بالكلمة التي أريدها ، وهو لو كان يعرفها لما كان ضباباً . . انه ما يزال يتمخض بها ومن أجل ذلك هو حيث هو ، وحيث يرى من حقه أن يكون ...

لبثت ساعة انتظر الكلمة النائمة المفقودة ، ثم مرت يد قاسية ففرقت بيننا فغاب الضباب عني ! ... وفيما أنا مطرق على شاطىء البحر أفكر في تلك القوة الخفية التي لا همّ لها إلا قطع الصلات بين روحين يتهامسان وقلبين يتناجيان سمعت جلبة وضوضاء فقمت اليها فاذا آلاف من الخلق يتجادلون ويتخاصمون والبحر أمامهم والجبل وراءهم والسماء تنظر اليهم فقلت : ما لكم أيها الناس ، وما تلك التي تكأكأتم عليها وأطلقتم فيها الألسنة والعيون ؟ علامَ تختلفون وفيمَ تحتدمون ؟ فقالوا : أرأيت هذا البحر الذي تقف على شاطئه ، لقد قذف الينا أمس بزجاجة ملؤها رماد وأسرَّت الينا احدى موجاته انهُ رماد رجل عبقري عظيم ولد في الهند وقضى أيامهُ على ضفافه « الكانج » يعظ الناس ويهديهم الى الصراط المستقيم ويدبر الدنيا بحكمه وآياته فلما مات أحرق جرياً على العادة الهندية فانقلبت عبقريته لساناً من لهيب ما لبث أن استحال الى رماد جمعته الأمة في هذه الزجاجة وأودعتها البحر فما زالت الأمواج تتقاذفها حتى رمتها على هذا الشاطىء . ذلك ما أسرَّت به الينا موجة البحر ، وها هي ذي الزجاجة اجتمعنا حولها حائرين لا ندري على أي مذبح نضعها ومن هو الذي يحق له أن يتملكها ويضع يده عليها ... ولكن من أنت أيها الناظر الينا بعينك الطائرة ؟ فقلت لهم : هي عين الله الذي تركتهُ منذ ساعة ، وقد فصلتني عنهُ يد لا ترحم وما حيرتكم الآن إلا نظرة من نظرات تلك العين التي تسع الدنيا وتملأها . . اني أراكم في ضباب هذه الزجاجة التي لا تعرفون أين تضعونها . . .

انها زجاجة العبقرية ، زجاجة رمادها وقد همدت ... فما أنتم فاعلون وأين خطاؤكم يتكاثرون فترى ما يكون ؟ . . فشبت من الجمع امرأة تلهاث الجيد وقالت هذه الزجاجة لي : أنا الفلسفة ، ونهضت أخرى ساجية الطرف وصاحت : بل هي لي أنا الحكمة . وصاحت امرأة ثالثة أخذت بعنق الاثنتين : بل هي لي أنا الحكمة . ووثب الى الزجاجة فتىً وسيم عديم الحسن ، صبيح الوجه ، مطهم

الخلق تقدح عيناه شرراً وصاح ملء فمه ورئتيه وروحه : هي لي هي لي : أنا الإلهام والشعر .. ثم نهض من مكانه فنسخ طوت الحياة من كتابه سبعين صفحة وراح يجرّ نفسه جرّاً حتى توسط القوم وقال بلهجة رمادية : ان هذه الزجاجة لي : أنا الزهد .. وصاح أحد العميان : بل هي لي : أنا الألم .. وارتفع صوت من بعيد يقول : لا تعبروا هذا الرماد فهو رمادي : أنا النار .. وارتفع صوت آخر يقول : أنا البحر وهذه الزجاجة من جواهري . وصوت آخر : أنا الليل وفي هذا الرماد بعض من أحلامي .. وسمعت صوتاً من العلاء يقول : اتركوا الزجاجة اتركوها فان فيها الف شمس تضيء بي : أنا المجرة . وهرت عليها نجمتان وقالتا : هذه الزجاجة لنا فلو لم يحدق البنا صاحبها طوال حياته لما حدقتم اليها الآن .. وأطلّ علينا التاريخ يجرّ وراءه مواكب الأجيال وتوسط الساحة وتربع صائحاً : ابعدوا ابعدوا فها أنا ذا أتيت وهذه الزجاجة لي فأنا وحدي أستطيع ان أعيد رمادها طيباً في الذكرى .. وجاء الحفارون والبناؤون والرسامون والمنشدون يتدافعون ويدعون قائلين : لو لم نكن في لسان هذا الرجل وعينه وقلبه لما أستطاع ان يكون عبقرياً .... واشتدت الجلبة وعلا الصياح ونشبت بين الارض والسماء حول تلك الزجاجة معركة كادت تتحطم في عنيرها والأيدي تتجاذبها ، كل يدّعي انها له ويريد أن يضع رماد العبقري على مذبحه .. فلم أطق صبراً وصحت بأولئك الناس . ويحكم قفوا قفوا يا عشاق الزمن الاخير . كان هذا العبقري بالأمس حيّاً فأنكرتموه وحسدتموه وقاتلتموه وأذقتموه مرّ العذاب وكدتم ترجونه من أجل عبقريته وهزأتم بحكمه وعظاته وآياته .. كان عارياً فلم تسقوه وعريانا فلم تكسوه وجريحاً فلم تواسوه فلما أطبق جفنيه تنافستم في حبه ورفعتموه الى قمة المجد ... كانت زجاجته رحيقاً فلم تشربوه فلما انقلبت رماداً تمثلتم بها على قبره .. لا — ليس هذا العبقري لكم وقدمات ، لانكم لم تكونوا له وهو حي فلا تمسوا هذا الرماد فلا حق لكم فيه ... ولا يزعمنّ احد منكم ان هذا العظيم مدين له ، فالعبقرية مستقلة حرة لا تنطوي تحت اي جناح مهما يكن طائره ... فهي لنفسها ولله وللخلود ...